

الحلقة الرابعة
القَصَصُ الدِّينِيُّ
العَرَبُ فِي أَوْرُبَا

أَخْبَارُ بَايَمِ الْعَرَبِ فِي الْأَنْدَلُسِ

عبد الحميد جودة السحار

آخر أيام العرب في الأندلس

١

ضربَ فرديناندُ الحِصارَ على مدينةِ غرناطة ، آخرَ
معقلٍ للمُسلمينَ في الأندلس ، وأنشأ لجيوشه مدينةً
« سانتافي » في سهلٍ مرجِ غرناطة ، فقد عزمَ على
أن يستمرَّ حِصارُ المدينة ، حتى تسقطَ في يده ،
ويقضى بذلكَ على دولةِ المسلمينَ في أسبانيا .
وتدفقتْ جيوشُ النصرانيَّةِ كال موجِ الزَّأخر ، وقد
تزودتْ بالمُدافعِ والدُّخائر ، وراحتْ تُهاجمُ الفِئَةَ
القليلةَ المُحصَّرة ، التي وقفتْ وحدها في الميدان ،
تقاتِلُ عن دينها وأعراضِها ، لا أملَ لها في مددٍ يأتيها
من الخارج ، وقد انحصَرَ الرَّجاءُ في عزيمةِ رجالِها ،

وما بَقِيَ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ أَغْذِيَةٍ وَمُؤْن .

رَأَى فَارِسُ الْمُسْلِمِينَ مُوسَى بْنَ أَبِي غَسَّانَ ، أَنَّ
الْهُجُومَ خَيْرٌ وَسِيلَةٌ لِلدَّفَاعِ ، فَجَمَعَ الْفُرْسَانَ
الصَّنَادِيدَ ، الَّذِينَ وَهَبُوا حَيَاتَهُمْ لِلْمَوْتِ ، وَانْطَلَقَ
عَلَى رَأْسِهِمْ ، يَشُقُّ طَرِيقَهُ فِي جُيُوشِ النَّصْرَانِيَّةِ ،
الَّتِي أَطْبَقَتْ عَلَى غَرْنَاطَةِ مَنْ كُلِّ جَانِبٍ ، يَلْعَبُ
بَسِيفِهِ ، يَقُطُّ الرُّءُوسَ وَيُشَخِّنُ الْعَدُوَّ بِالْجِرَاحِ ، وَيُوقِعُ
الْاضْطِرَابَ بَيْنَ صُفُوفِهِ ، حَتَّى إِذَا مَا بَلَغَ بِهِ وَعْمٌ
مَعَهُ الْجَهْدَ ، عَادَ إِلَى غَرْنَاطَةِ يَسْتَرِيحُ ، لَيْسْتَائِفَ
جِهَادَهُ ، وَالْأَعْدَاءُ يَرْمُقُونَهُ فِي دَهْشٍ وَإِعْجَابٍ .

وَرَأَى الْخُطْبَاءُ يُحَرِّضُونَ الْمُسْلِمِينَ ، وَيَذَكِّرُونَهُمْ
بِأَفْضَلِ مَا فِيهِمْ ، وَيُبَصِّرُونَهُمْ بِعَوَاقِبِ الْهَزِيمَةِ ،
فَتَأَجَّجَتْ نَارُ الْحِمَاسَةِ فِي صُدُورِهِمْ ، وَاسْتَأْسَدُوا
فِي الدَّفَاعِ عَنْ غَرْنَاطَةِ ، آخِرِ مَعَاقِلِ الْمُسْلِمِينَ ، فَقَدْ
تَيَقَّنُوا أَنَّ فِي انْدِحَارِهِمُ الْقَضَاءَ عَلَى حَيَاةٍ

الإسلام في الأندلس .

٢

وبلغ بايزيد الثاني العثماني ما يُقاسيه مسلمو
غرناطة ، فعقد العزم على أن يشدّ أزرهم ، حتى
يستطيعوا أن يقفوا في وجه فرديناند ، وأن يُعيدوا
للإسلام سَطوته في أسبانيا ؛ فاتَّفَقَ مع السُّلطان
قايتباي ، ملك مصر ، على أن يُرسل بايزيد أسطولاً
إلى أراضي أسبانيا ، وأن يُرسل قايتباي جيشاً من
جهة أفريقيّة ؛ وبدأ العاهلان في تجهيز الحملة ،
ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان .

ثار كركود وأحمد وسليم ، أبناء بايزيد على
أبيهم ، واندلعت نار الحرب الأهليّة ، ولم تُطفأ الفِتنة
إلاّ بتنازل بايزيد عن الخلافة لابنه سليم الأوّل ، وفي
غمار هذه الثورة ، ماتت فكرة بعث أسطول عُثماني
لإنقاذ مسلمي غرناطة .

واغتنم فرديناند وإيزابلاً هذه الفرصة ، فأوفدا إلى
قايتباى ملك مصر ، مسيو بطرّه مارتير سفيرا ؛
وكان بطرّه حاذقاً ماهراً ، فأخذ يُقنعُ قايتباى أنَّ
الأسبانيّين لا يُضمرونَ عداوةً للإسلام ، ولكنّهم
يُدافعونَ عن حُرّيّاتهم ، ويُقاتلونَ العربَ الذينَ
اغتصبوا ديارهم ، ونهبوا أموالهم ، وأباحوا
حُرّماتهم ، وعاثوا فى أرضهم فساداً ؛ فاكفى
قايتباى بأن أرسلَ إلى فرديناند وإيزابلاً والبابا وملك
نابولى ، كتباً يطلبُ فيها الرّفقَ بمُسلمى الأندلس ،
وعدم إرهابهم .

ولم يُسمَعْ رجاءُ ملكِ مصر ، فقد كانت أصواتُ
المدافعِ وصلصلةُ السيوفِ عندَ أسوارِ غرناطة ، عاليةً
تُصمُّ الآذان .

ووئدت فكرةُ نهوضِ المسلمينَ للدّفاعِ عن
غرناطة ، معقِلهم الأخير فى أسبانيا .

أشرف فرديناند الخامس على حصون غرناطة ،
 وبعث إلى أبي عبد الله ، يدعوه إلى التسليم ،
 فأطرق يفكر ، وإذا بصيحات الحرب ، والهُتافاتِ
 الحماسية التي كانت تنبعث من أفواه الشعب ،
 الذي أضرم ناره موسى بن أبي غسان ، تصكُّ
 أذنيه ؛ فعزم على أن يرفض دعوة فرديناند ،
 وألا يلبس برضاه ثوب العار ، فأرسل إلى فرديناند ،
 أن الموت خير من التسليم .

وأرسل فرديناند سراياه ، لإتلاف ما حول غرناطة
 من مزارع وحقول ، ورابطت سفنه في مضيق جبل
 طارق ، لتحول دون وصول أي مدد من إفريقية إليها ،
 ثم راح يضيق الحصار على المدينة ، وقد عزم على
 ألا يرفع عنها حصاره ، حتى تخضع ساجدة تحت قدميه .

وَمَرَّتْ شُهُورُ الصَّيْفِ ، وَالْمَدِينَةُ تُقَاسِي مَرَارَةَ
الْحِصَارِ ، وَالْمَوْنُ تَتَنَاقَصُ ، وَالْحِمَاسَةُ تَخْبُو ، وَالْعَزَائِمُ
تَضْعَفُ ، وَعَوَامِلُ الْهَزِيمَةِ تَسْتَشْرِى فِي الْجُمُوعِ ، وَأَقْبَلَ
الشَّتَاءُ بِبَرْدِهِ ، وَغُطِّيَتِ الْوَهَادُ وَالشُّعْبُ
بِالْثُلُوجِ ، وَاحْتَاجَتِ الْأَجْسَامُ إِلَى أَغْذِيَةٍ تُمَدُّهَا بِالْدَّفْعِ ،
وَلَكِنْ عَزَّ الطَّعَامُ ، وَرَاحَ الْجُوعُ يَعْضُ الْبُطُونِ الْخَاوِيَةَ
بِنَابِهِ ، فَازْدَادَ السُّخْطُ ، وَمَرَضَتِ الْأَرْوَاحُ .

وَاجْتَمَعَ مَجْلِسُ الْحُكْمِ ، يَتَشَاوَرُ فِي الْأَمْرِ ، فَبَإِذَا
بِرُوحِ الْهَزِيمَةِ تَتَحَكَّمُ فِيهِ . وَقَدِمَ حَاكِمُ الْمَدِينَةِ ، وَقَرَّرَ
أَنَّ الْمَوْنَ الْبَاقِيَةَ لَا تَكْفِي إِلَّا لِبَضْعَةِ أَشْهُرٍ ، فَازْدَادَ
التَّشَاوُمُ ، وَهَمَسَ هَامِسٌ بِوَجُوبِ التَّسْلِيمِ . فَانْتَفَضَ
مُوسَى بْنُ أَبِي غَسَّانَ ، وَقَالَ فِي ثَوْرَةٍ : « إِنَّ الدَّفَاعَ
وَاجِبٌ ، وَإِنَّ قَبْرًا تَحْتَ أَسْوَارِ غَرْنَاطَةِ ، خَيْرٌ مِنْ
قُصُورِ الدُّنْيَا فِي ظِلِّ الْإِسْتِعْبَادِ » . فَسَرَتْ رُوحُهُ
الْحِمَاسِيَّةُ فِي الْمَجْلِسِ ، فَقَرَّرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يُوَلِّيَ

موسى أمر الدّفاع .

٤

وقَفَ موسى على رأسِ فرسانِهِ خلفَ أسوارِ
غُرناطَة ، ثمَّ أمرَ بفتحِ الأبواب ، وما إنْ فُتِحَتْ حتّى
تدفَّقَ موسى وفرسانُهُ منها كالبحرِ المزمجر . والتقى
فرسانُ المسلمينَ بجيوشِ فرديناند ، ودارت رَحَى
معركةٍ رهيبَة ، كان موسى بطلَها الصّديد فألقى
الرُّعبَ فى صفوفِ الأعداء ، وأججَ نارَ الحماسةِ فى
صدورِ المسلمين .

وأقبلَ أبو عبدِ الله على رأسِ حرسِهِ الملكيّ ،
وخاضَ غمارَ المعركة ، وتوافدَ المُشاةُ توافدَ الموج ،
ومشى الرّجالُ إلى الرّجال ، وسالتِ الدّماءُ ،
وارتفعتِ الصّيحاتُ ، ومالَ فرسانُ فرديناند على
مُشاةِ المسلمين ، فزالوا عن أماكنهم ، وفرُّوا هِرَابًا ،
يَبْغُونَ النّجاةَ ، فلمّا رأى حرسُ أبى عبدِ الله تشتّتَ

المُشاة ، نكصُوا على أعقابِهِمْ ، وانطلقُوا صَوْبَ
المدينة ، يَبْغُونَ التَّحَصُّنَ بِهَا .

وشارتْ ثائرةُ موسى ، فراحَ يدْعُو الفارِّينَ إلى
الثَّباتِ ، والذِّيارِ عن أوطانِهِمْ وأموالِهِمْ ونسائِهِمْ
وأبنائِهِمْ ، ولكنْ ذَهَبَتْ صَيِّحاتُهُ أدراجَ الرِّيحِ ،
فثَبَّتْ في المِيدانِ وحده ، وحوَّلَهُ فرسانُهُ البِوَاسِلَ ،
يُدَافِعُونَ عَنِ الأَرْضِ الَّتِي تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ ، فلمْ يَعدْ
للمسلمينَ في أسبانيا أرضٌ غَيرَها .

وشدَّ رجالُ فرديناندَ عليهم ، فجعلُوا يُدَافِعُونَ عَنِ
أرضِهِمْ دِفَاعَ اليائِسِ المُسْتَمِيتِ ، وراحَ فرسانُ
المُسلمينَ يتساقطُونَ صَرَعى تَحْتَ ضَرَباتِ النُّصارى ،
الَّتِي كانتْ تُكالُ لَهُمْ مِنْ كُلِّ جانبٍ ، ولمْ يَبْقَ
إِلَّا موسى في عُصبةٍ قليلةٍ ، فلمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ
الانسحابِ ، والتَّحَصُّنِ خَلْفَ أسوارِ المدينة .

راح كبارُ الجُنْدِ والفُقهاءِ والأعيانُ يتقاطرونَ على
 بهوِ الحمراءِ الكبيرِ ، وقد علّت وجوههُم غبرة ،
 ولاحَ في مُحِيَّاهُم الأسي العميق ، وجلسوا ساهمينَ
 مُطْرِقين ، حتّى إذا قامَ حاكمُ المدينةِ يتحدّث ، رفعُوا
 أبصارَهُم إليه ، ولم يظهرْ في وجوهِهِم الاهتمام ،
 فقد كانوا يعلمونَ ما سَيُنْبئُهُم به . قال حاكمُ
 المدينة : إنّ المؤنَّ قد نُضِبَتْ ، والبطونُ قد خوت ،
 والأمراضُ انتشرت ، وأنينَ الشعبِ قد علا ، فليسَ
 أمامنا إلاّ الموتُ أو التّسليم .

وارتفعتْ في القاعةِ أصواتُ تطلُّبِ التّسليم ،
 فهَبَّ موسى يقول : خيرٌ لنا أن نذكرَ فيمن
 استشهدُوا في الدِّفاعِ عن غرناطة ، من أن نذكرَ
 فيمن سلّموها إلى الأعداءِ مختارين .

ووضَعُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ، وَأَعْرَضُوا عَنْهُ ،
فَقَدْ مَاتَتْ حِمَاسَتُهُمْ ، وَبَاتَتْ صُدُورُهُمْ مَسْرَحًا
لِلْيَاسِ الْمَرِيرِ .

اسْتَمَعَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَأْيِ الْجَمَاعَةِ ، فَأَوْفَدَ
حَاكِمَ الْمَدِينَةِ مُفَاوِضَةَ فَرْدِينَانِدٍ عَلَى التَّسْلِيمِ . انْطَلَقَ
الْحَاكِمُ بَيْنَ جُمُوعٍ أَضْنَاهَا طَوْلُ الْحِصَارِ ، وَنَهَكُهَا
الْجُوعُ ، وَهَدَّهَا الْمَرَضُ ، وَعَبَثَ بِهَا الْيَاسُ ، فَتَعَلَّقَتْ
بِهِ الْأَفْنِدَةُ الْقَلِقَةُ ؛ وَمَا إِنْ غَابَ عَنْهَا حَتَّى خَفِضَتْ
الرُّءُوسَ ، وَتَرَقَّرَقَتِ الدُّمُوعُ فِي الْعُيُونِ .

اجْتَمَعَ حَاكِمُ غَرْنَاطَةَ بِفَرْدِينَانِدٍ الْخَامِسِ الْمَزْهُورِ
بِنَصْرِهِ . وَدَارَتِ الْمُفَاوِضَاتُ بَيْنَ الْمُنْتَصِرِ وَالْمَهْزُومِ ،
حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ ، عَادَ الْحَاكِمُ إِلَى غَرْنَاطَةَ ، لِيَرْفَعَ إِلَى
مَجْلِسِ الْحُكْمِ شُرُوطَ التَّسْلِيمِ .

واجتمع كبار الجند والفقهاء وأعيان البلاد ،
 يستمعون إلى الشروط التي قبلها فرديناند ، وراح
 الحاكم يقرأ : « يقف القتال بين الفريقين سبعين
 يوما ، إذا لم تصل خلالها أمداد إلى المسلمين ، من
 إخوانهم في أفريقية ، سلمت غرناطة ، ودخلت في
 طاعة ملك النصارى ، وأن يطلق سراح جميع
 الأسرى من النصارى بلا فدية ، وأن يطلق الأسرى
 المسلمون كذلك ، وأن يؤمن المسلمون على
 أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، وأن يحتفظوا
 بشريعتهم وقضائهم ، وأن يتمتعوا أحرارا بشعائر
 دينهم ، من الصلاة والصوم والأذان وغيرها ، ووأن
 تبقى المساجد حرمًا موصونا ، لا يدخل نصراني
 مسجدًا أو دار مسلم ، وألا يؤلى على المسلمين

نصرانيّ أو يهوديّ ، وأن يجوزَ إلى إفريقيّة من شاء
من المسلمين ، في سَفْنٍ يُقدِّمُها ملكُ النصارى ، في
مُدّةِ ثلاثةِ أعوام ، وألاّ يُقهرَ مسلمٌ على التّصرُّ ،
وأن يُوافقَ البابا على هذه الشُّروط ، وأن يُغادرَ
أبو عبد الله غرناطةَ إلى البشّرات ، حيثُ يُقطَعُ
ضِباعاً يعيشُ فيها ، وأن تُقدِّمَ غرناطةَ خمسَ مائةٍ من
أعيانها ، كِفالةً بالإِخلاصِ والطّاعة .

فارتفعَ البكاءُ والعيولُ ، وصاحَ موسى بنُ أبي الغسان :
- كَفَى بُكاءً ، وإلى سيوفِنا ، ندافعُ عن حُرّيتنا ،
ولنَمُتَ مِيتَةً نَبِيلَةً .

وقلَّبَ أبو عبد الله عينيه فيما حوله ، فألقى
وجوهاً تنصَحُ باليأس ، فصاح :
- وَيْلٌ لِي ، كُتِبَ عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ شَقِيًّا ، وأن
يذهبَ المَلِكُ على يدي .

فقال الشيوخ :

- هذه مَشِيئَةُ اللَّهِ ، ولا رَادَّ لِقَضَائِهِ .

فصاحَ موسى :

- هذا هو الخِزْيُ والْعَارُ ، لن يُوفَى النُّصَارَى
بعَهْدِهِمْ ؛ سيسومونكم سوءَ العذاب ، ويفتنونكم
عن دينكم ، ويُدنِّسونَ مساجدكم ، ويستبيحونَ
نساءكم ، وللموتِ أَحَبُّ إلى من هذا .

ثمَّ خرَجَ وامتطى جِوَادَهُ ، وانطلقَ كالمحموم في
طُرُقَاتِ غِرْنَاطَةِ ، ثمَّ غادرَهَا والشَّمْسُ في مَغْرِبِهَا ،
وسارَ على ضِفَّةِ نَهرٍ « شَنْيَل » وقد دُجِّجَ في
السَّلاحِ ، وفيما هو في سَيْرِهِ ، وَقَعَ بِصَرِّهِ على
سَرِيَّةٍ من الأَسبانِ ، فلكَزَ جِوَادَهُ ، واندَفَعَ صَوْبَ
أعدائِهِ ، وراحَ يطعنُهُم بُرْمِحِهِ ، وانقَضَ عليهم كَلِيثُ
كَاسِرٍ يُجَدِّلُ هذا ، ويصرَعُ ذاكَ ، حتَّى سقطَ
جِوَادُهُ تَحْتَهُ . فتكاثَرُوا عليه ، فاستلَّ خِنْجَرَهُ يطعنُ
به ، ويُدافعُ به عن نَفْسِهِ ، ووجدَ أنَّه سيقَعُ أسيراً

فى أيدى أعدائه ، فأبى أن تكون هذه نهايته ، فألقى
بنفسه فى اليم ، ولقاع البحر خير من ذل الأسر ،
وعار الاستسلام .

٧

وسقطت غرناطة ، ولم يمض على تسليمها إلا أعوام
قليل ، حتى نقض الأسبان عهدهم ، فأغلقوا
المساجد ، وحرم على المسلمين إقامة شعائرهم ، وراح
البابوات يُصدرون المنشورات ، لإثارة المسيحيين على
المسلمين ، فازدادت مظالم الأسبان ، وضاق بعض
المسلمين بهذا الطغيان ؛ فثاروا فى الجبال وفتكوا بمن
كان يذيقهم الذل من الحكام .

وثار القسوس ، ونادوا بوجوب تنصير المسلمين ،
أو طردهم من البلاد . واشتد الكرب بالمسلمين ،
ففر بدينه من قدر على الفرار ، وفتن عن دينه
المستضعف ، الذى عجز عن الهجرة ، واللحوق

ياخوانه المسلمين ، وأقيمت محاكم من القُسُس ،
لمحاكمة من تَبَدَّرَ منه بادرة من المسلمين المتَّصِرِينَ ،
فكانوا يحكمون بحرقه أو بسجنه ، ويُنزلون به أقصى
أنواع العذاب ، ويُكَلَّلون به نكالا شديدا ، فقد كان
الأسبان مُتَعَصِّبِينَ غاية التعصُّب ، ولم يتلقَّوا شيئا من
السَّماحةِ الدِّينيةِ ، التي عاملهم المسلمون بها طوال
القرون الثمانية ، التي كانوا يعيشون فيها في أمن
الإسلام ، وعدالته وسماحته .

واختفى من أرض أسبانيا ، الشعبُ العربيُّ
الباسل ، المُتَيَقِّظُ المُسْتَنِير ، الذي أحيا بهِمَّتِه تلكَ
الأرضَ المُجدبةَ ، والذي بعث من جامعاته العربيةِ
العتيقة ، نورَ العِرفان ، الذي أخرج أوروبا من ظلامِ
الجهل ، إلى نورِ العلمِ الحديث .